الاستعمار الفرنسي في الجزائر

الأستاذ حسن أحمد الخطيب

الأمة الفرنسية — منذ ثورتها الكبرى قبيل نهاية القرن الثامن عشر — تدعي أنها الحفيظة على الحرية البشرية، وواضعة الحقوق الإنسانية؛ بذلت في سبيلها أغلى المهج والأرواح وسطرتها بدماء أبنائها الأحرار، وأعلنتها ديناً ومذهباً في فرنسا، وبشرت بها في سائر الأمم الغربية وغيرها، وزعمت أن غراس الحرية نبت في بلادها، ثم زكا وترعرع، حتى استوى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين، فيقطف منها الناس جميعاً دانى الثمر وطيب الجنى

ولقد غلت في حبها وأفرطت في تقديسها، حتى اتخذتها مفكروها محوراً لتفكيرهم ومصدراً لوحيهم وإلهامهم، وتغنى الخطباء والكتاب والشعراء بالحرية والإخاء والمساواة شعار الثورة ودثارها، ودين فرنسا الجديد وإنجيلها!!

فهل كان ذلك حقاً؟ هل كان ذلك ناجماً عن خليقة مستعدة للخير وطلب الكمال، أو نخيزة تحفز لرعاية الفضائل، أو قلب مؤمن بأسمى المبادئ، أو عقيدة دفعت المصلحين إلى نقض بناء الظلم وتقويض دعائم الجور والثورة على القاسطين، وتطهير الأرض من الظالمين؟؟

نقول — والأسف يملأ جوانحنا — إن موقدي الثورة وحاملي بنودها والداعين إلى مبادئها، لم يكونوا مؤمنين بها، فلم تخالط بشاشتها قلوبهم، ولم تمتزج بها نفوسهم، إنما هي شقشقة هدرت ثم قرت، وصيحة دوّت في الجو برهة ثم لم تنشب أن ذهبت أدراج الرياح، ولم يلبث كبراء فرنسا وحكامها أن عادوا إلى سابق عهدهم، وثابوا إلى ما كانوا عليه من استبداد ظالم، وغشمرية يختفي فيها الحق ويضيع فيها الضعفاء، ورجع الأقوياء فيها أشد صيالا، وأقوى طماحاً. وإلا فما بال الفرنسيين رضوا بنقض عهد الثورة وميثاقها في أنفسهم، وفي أبناء البلاد التي وقعت في حبائلهم، فأذاقوهم عذاب الهون، وصبوا عليهم صواعق غضبهم وهم ما اجترحوا سيئة، ولا ارتكبوا أمراً إدّا

ومن هم أولئك الذين يساموون هذا الخسف ويعانون هذا الظلم من مصادرة للحرية، وإنكار للحقوق الشرعية، وهدم لاستقلال البلاد، وإضاعة لمعالم العدل والمساواة؟

هم عرب المغرب ومسلموها في الجزائر وغيرها. هم أنسال أولئك الأمجاد الذين وطئوا بهذه البلاد وبالأندلس منذ آماد طويلة، فنشروا فيها مبادئ العدل والحرية، والمساواة والتسامح، وحملوا لواء العلم والعرفان، وأرسخوا فيها دعائم المدنية وأركان الحضارة

هم سلالة أولئك الهداة والرائدين من عرب المغرب والأندلس الذين علموا أبناء فرنسا وغيرهم من أمم أوروبا، وأيقظوهم من سباتهم العميق، وأخرجوهم من ظلمات الجهل والجور إلى نور العلم وضياء الحرية يوم أن كانوا يهيمون على وجوههم يتخبطون في دياجير الجهل، ويرزحون تحت آصار الجنف والاستبداد

لقد شهد المنصفون من علماء أوروبا ومؤرخيها بعدل العرب وإحسانهم، ورحمتهم وتسامحهم، حتى قال جوستاف لوبون: «ما رأيت فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب»، كما اعترفوا بأن نهضة أوربه إنما نبعت من معين العرب، وشيدت بطلبة البعوث العلمية الذين ارتووا من مناهل علومهم ومعارفهم في طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومراكش وصقلية وغيرها. كذلك اقتبسوا من محاسن عاداتهم وقوانينهم، وانتفعوا بما شاهدوه من زراعتهم وصناعاتهم؛ وتنافسوا في ذلك تنافساً عجيباً، حتى انتشرت هذه المعارف والعلوم، وبزغت شمسها في أوروبا، ولا سيما فرنسا وإيطاليا وجرمانيا وانجلترا، وذلك في القرون الوسطى، فنقلوا عنهم الفلسفة والهيئة والطبيعيات والبصريات والرياضة والكيمياء والطب والصيدلة والزراعة، وتعلموا منهم الفروسية، وأخذوا عنهم عمل الورق والبارود، ونسج كثير من المنسوجات وكثيراً من الحبوب والأشجار

جاء في صحيفة مدرسة أدنبره:

«إنا لمدينون للعرب كثيراً، فإنهم الحلقة التي وصلت مدنية أوربا قديماً بمدينتها حديثاً، وبنجاحهم وسمو همتهم تحرك أهل أوروبا إلى إحراز المعارف، واستفاقوا من نومهم العميق في الأعصار المظلمة، ونحن مدينون لهم بترقية العلوم الطبيعية والفنون النافعة